سلسلة الفوائد المنتقاة من كتب العلماء(٢)

خلاصة

الرسالة التبوكية

تأليف

الإمام ابن القيم رحمه الله

لخصها لنفسه

(ونشرها لمن أراد الإنتفاع به)

أبو سهيل رضا الحمراوي

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم.

أما بعد .

فهذه فوائد جمعتها لنفسي أثناء قراءتي لهذا الكتاب ،ولم يكن القصد عند كتابتها نشرها،ثم بدا لي أن أنشرها بعد سنوات من تقيدها لعل أحداً ينتفع بها ،وأسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع والعمل الصالح وأن يجزي مشايخنا عنا خير الجزاء

مقدمة

خلاصة الرسالة بقلم المحقق الشيخ محمد عزيز شمس –حفظه الله–[1]

فهذه الرسالة التي بين أيدينا من مؤلفات الإمام العلامة ابن قيم الجوزية –رحمه الله–، وقد كتبها في المحرم سنة ٧٣٣ بتبوك، وأرسلها إلى أصحابه في بلاد الشام، فسمِّيت بـ"الرسالة التبوكية".فسَّر فيها المؤلف قوله تعالى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ}، وذكر أن من أعظم التعاون على البر والتقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله ورسوله باليد واللسان والقلب، مساعدة ونصيحة وتعليمًا وإرشادًا. وبيَّن أن زاد هذا السفر العلم الموروث عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، وطريقه بذل الجهد واستفراغ الوسع، ومَركبه صِدقُ اللجأ إلى الله والانقطاع إليه بالكلية وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه. ورأس مال الأمر وعموده في ذلك إنما هو دوام التفكر والتدبّر في آيات القرآن، بحيث يستولي على الفكر ويشغل القلب، وتصير معاني القرآن مكان الخواطر من قلبه.

---

[1] طبعة دار عالم الفوائد

ثم استطرد إلى بيان كيفية تدبر القرآن وتفهُّمه والإشراف على عجائبه وكنوزه، ففسَّر الآيات ٢٤ - ٣٠ من سورة الذاريات، واستنبط أسرارها وأثار كنوزها وأفاض في بيانها، ليُجعَل ذلك نموذجا يُحتذَى في تدبر القرآن.....الخ

انتهى

خلاصة الرسالة التبوكية

إن الله سُبحانَه يقول في كتابه: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} ،وقد اشتملتْ هذه الآيةُ على جميعِ مَصالحِ العبادِ في معاشِهم ومعادِهم، فيما بينَهم في بعضِهم بعضا، وفيما بينَهم وبينَ ربهم، فإن كلَّ عبد لا يَنْفَكُّ عن هاتينِ الحالتينِ وهذينِ الواجبينِ: واجب بينه وبين الله، وواجب بينه وبين الخَلْقِ.

فالبرُّ كلمة لجميع أنواعِ الخير والكمال المطلوب من العبد، وفي مقابلتِهِ "الإثْمِ". وفي حديث النَّواس بن سَمْعَان – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال له: "جئتَ تَسأل عن البرِّ والإثم"؛ فالإثم كلمة جامعة للشرِّوالعيوبَ التي يُذَمُّ العبدُ عليها .

فيدخل في مسمى البرِّ الإيمان وأجزاؤه الظاهرة والباطنة، ولا ريبَ أن التّقوى جزءُ هذا المعنى، وأكثر ما يُعبرُ بالبِرَّ عن بِرِّ القلب، وهو وجود طَعْمِ الإيمان فيه وحَلاوته، وما يلزم ذلك من طمأنينته وسلامتِه وانشراحِه وقوته وفَرحِه بالإيمان،فإن للإيمان فرحة وحلاوة ولَذَاذَة في القلب، فمن لم يَجِدْها فهو فاقد للإيمان أو ناقصه،

وهو من القسم الذين قال الله -عز وجل- فيهم: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}.

فهؤلاء -على أصح القولين- مسلمون غير منافقين، وليسوا بمؤمنين، إذ لم يدخل الإيمان في قلوبهم؛ فيباشرها حقيقته .

۞۞۞

أما التقوى فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا فيفعل ما أمره الله به إيمانا بالأمر، وتصديقا بموعدِه ، ويتركُ ما نهى الله عنه إيمانا بالنهي، وخوفا من وعيدِه،كما قال طَلْق بن حَبِيب: "إذا وقعتِ الفتنة فادفعوها بالتقوى"، قالوا: وما التقوى؟ قال: "أن تعملَ بطاعةِ الله على نور من الله، ترجو ثوابَ الله، وأن تتركَ معصية اللهِ على نور من الله، تخاف عقاب الله".

وهذه من أحسنِ ما قيل في حَدِّ التقوى.

۞۞۞

فإن البرَّ مطلوب لذاتِه، إذ هو كمال العبد وصلاحه الذي لا صلاحَ له بدونه، كما تقدَّم.،وأما التقوى فهي الطريق الموصِلة إلى البرِّ، والوسيلةُ إليه، ولفظُها يدلُّ على هذا... فلفظُها دالٌّ على أنها من الوقاية، فإن المتَّقِيَ قد جعلَ

بينه وبين النار وِقاية، فالوقايةُ من باب دفع الضرر،والبرُّ من باب تحصيلِ النفع ، فالتقوى كالحِمْيَةِ ، والبرُّ كالعافية والصحة.

وهذا بابٌ شريف يُنتَفَعُ به انتفاع عظيم في فهم ألفاظ القرآن ودلالتِه، ومعرفةِ حدودِ ما أنزل الله على رسوله؛ فإنه هو العلم النافع، وقد ذمَّ سبحانَه في كتابه من ليس له علم بحدود ما أنزله على رسوله. فإن عدمَ العلمِ بذلك مستلزم مفسدتين عظيمتين:

إحداهما : أن يدخل في مسمَّى اللفظ ما ليس منه؛ فيُحكَم له بحكم المراد من اللفظ؛ فيُسَوَّى بين ما فرقَ الله بينهما.

والثانية: أن يخرج من مُسَمَّاه بعضُ أفرادِه الداخلةِ تحتَه؛ فيُسْلَب عنه حكمُه؛ فيفرَّق بين ما جمعَ الله بينهما.

والذّكيُّ الفَطِنُ يَتَفَطَّن لأفراد هذه القاعدةِ وأمثلتِها، فيَرَى أن كثيرا من الاختلاف أو أكثرهُ إنما نَشَأَ عن هذا الموضع، وتفصيلُ هذا لا يَفِيْ به كتاب ضخم.

ومن هذا لفظُ "الخمر"؛ فإنه اسم شامل لكل مُسكِر، فلا يجوز إخراجُ بعض المسكراتِ منه، ويُنفَى عنها حكمه. وكذلك لفظُ "الميسر"، وإخراج بعض أنواع القِمارِ منه.

وكذلك لفظُ "النكاح"، وإدخال ما ليس بنكاح في مسمَّاه.

وكذلك لفظ "الربا"، وإخراج بعض أنواعه منه، وإدخال ما ليس برِبًا فيه.

وكذلك لفظُ "الظلم والعدل"، و"المعروف والمنكر"، ونظائره أكثر من أن تُحصى .

والمقصود أن المقصودَ من اجتماع الناس وتعاشُرِهم التعاونُ على البر والتقوى؛ فيُعِيْن كلّ واحد صاحبَه على ذلك علما وعملا. فإنَّ العبدَ وحدَه لا يَستقلّ بعلمِ ذلك ولا بالقدْرَةِ عليه، فاقتضتْ حكمةُ الربِّ سبحانَه أن جعل النوعَ الإنساني قائما بعضه ببعض معينًا بعضه لبعض.

۞۞۞

والإثم والعدوان في جانب النهي نظيرُ البرِّ والتّقوى في جانب الأمر،والفرق ما بين الإثم والعدوان فوق ما بين محرَّمِ الجِنْس ومُحَرَّم القَدْر.

فالإثم: ما كان حراما لجنسه.**والعدوان:** ما حُرِّمَ الزيادة في قَدْره، وتعدي ما أباحَ الله منه،فالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، ونحوها إثم. ونكاح الخامسة، واستيفاءُ المجْنيِّ عليه أكثرَ من حقه، ونحوه عُدْوان.

فالعدوان هو تَعَدِّي حدود الله، فنهى عن تعدّيها في آية، وعن قُرْبانها في آية، وهذا لأن حدوده سبحانه هي النهايات الفاصلةُ بين الحلال والحرام، ونهاية الشيء تارة تدخل فيه فتكون منه، وتارة لا تكون داخلةً فيه فيكون لها حكم مقابلِه فبالاعتبار الأول نَهَى عن تعدِّيها، وبالاعتبار الثاني نَهَى عن قربانها.

۞۞۞

حكمُ العبدِ فيما بينه وبين الناس، وهو أن تكون مخالطته لهم تعاونا على البر والتَّقوى، علما وعملًا.

وأما حالُه فيما بينَه وبينَ الله تعالى: فهو إيثارُ طاعتِه، وتجنُّب معصيتِه، وهو قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ}.

ولا يتمُّ الواجب الأول إلا بعَزلِ نفسِه من الوسطِ، والقيامِ بذلك لمحض النصيحة والإحسانِ ورعايةِ الأمر.

ولا يَتِمُ له أداء الواجب الثاني إلا بعَزْلِ الخلقِ من البَيْنِ، والقيامِ به لله إخلاصا ومحبةً وعُبودية.

فينبغي التّفطُن لهذه الدَّقيقة التي كلُّ خلل يدخلُ على العبد في أداء هذين الواجبين إنما هو من عدمِ مراعاتِها علما وعملا،وهذا هو معنى قول

الشيخ عبد القادر قدَّسَ الله روحَه: **"كنْ مع الحقّ بلا خَلْق، ومع الخلق بلا نَفْس، ومن لم يكن كذلك لم يزل في تخبيط، ولم يزل أمره فُرطا"**

الهجرة هجرتان:

هجرة بالجسم من بلد إلى بلد، وهذه أحكامها معلومة، وليس المرادُ الكلامَ فيها.

والهجرة الثانية هجرة بالقلب إلى الله ورسوله، وهذه هي المقصودة هنا. وهذه الهجرةُ هي الهجرة الحقيقية، وهي الأصل، وهجرة الجسدِ تابعةٌ لها، وهي هجرة تتضمن "من" و"إلى": فيهاجرُ بقلبه من محبة غير الله إلى محبته،ومن عبوديةِ غيره إلى عبوديته، ومن خوفِ غيرِه ورجائِه والتوكلِ عليه إلى خوفِ الله ورجائِه والتوكلِ عليه،ومن دعاء غيرِه وسؤالِه والخضوع له والذُّلِّ له والاستكانةِ له إلى دُعاءِ ربِّه وسؤالِه والخضوعِ له والذلِّ والاستكانةِ له .

وهذا هو بعينه معنى الفرار إليه، قال تعالى:**{فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ}**.فالتوحيد المطلوب من العبد هو الفرار من الله إليه.

فإذا فرَّ العبدُ إلى الله فإنما يَفِرُّ من شيء إلى شيء وُجِدَ بمشيئة الله وقَدَره؛ فهو في الحقيقة فار من الله إليه.

ومن تصوَّرَ هذا حقَّ تَصَوُّرِه فَهِمَ معنى قوله - ﷺ "وأعوذُ بك منكَ" وقوله: "لا مَلْجَأَ ولا منجَى منك إلا إليك" ،فالفار والمستعيذ فار مما أوجبه قَدرُ الله ومشيئتُه وخَلْقُه، إلى ما تقتضيه رحمته وبرُّه ولُطْفُه وإحسانه؛ ففي الحقيقة هو هارب من الله إليه، ومستعيذ بالله منه.

وتصوُّر هذين الأمرين يُوجِب للعبد انقطاعَ عَلَقِ قَلْبِه من غير الله بالكلِّية خوفا ورجاء ومحبة؛ فإنه إذا عَلِمَ أنَ الذي يفرُّ منه ويستعيذ منه إنما هو بمشيئة الله وقدرته وخَلْقه، لمْ يَبْقَ في قلبه خوف من غير خالقه ومُوجده؛ فتضمَّنَ ذلك إفرادَ الله وحدَه بالخَوف والحُب والرجاء.

فتأمّلْ كيف عاد الأمن كلُّه إلى الفرار من الله إليه؛ وهو معنى الهجرة إلى الله.

❁❁❁

وهذه الهجرة تَقْوى وتَضعُف بحسب قوة داعي المحبة وضعفِه، فكلما كان داعي المحبة في قلب العبد أقوى كانت هذه الهجرة أقوى وأتمَّ وأكملَ، وإذا ضَعفَ الداعي ضَعُفَتِ الهجرةُ، حتى إنه لا يكاد يشعر بها علما، ولا يتحرك بها إرادة.

❁❁❁

وأما الهجرة إلى الرسول - ﷺ"-؛ فمَعلَم لم يبقَ منه سوى رسمِه،ومنهج لم تترك منه بُنَيّاتُ الطريقِ سوى اسمِه ، ومَحَجَّةٌ سَفَتْ عليها السَّوافي فطَمَسَتْ رُسومَها، وأغارت عليها الأعادي فغَوَّرت مناهلها وعيونها، فسالُكها غريب بين العباد، فريد بين كل حيٍّ وناد، بعيد على قرب المكان، وحيد على كثرة الجيران، مستوحش مما به يستأنسون، مستأنس مما به يستوحشون، مقيم إذا ظَعَنُوا، ظاعن إذا قَطَنوا، منفرد في طريق طلبه، لا يَقَرُّ قراره حتى يَظْفَرَ بأربِه، فهو الكائنُ معهم بجسده، البائنُ منهم بمقصده، نامت في طلب الهدى أعينهم وما ليلُ مَطِيهِ بنائم ، وقعدوا عن الهجرةِ النبوية وهو في طلبها مُشَمِّر قائم، يعيبونه بمخالفة آرائهم، ويُزْرُونَ عليه إزراء على جهالاتهم وأهوائهم؛ قد رَجَموا فيهْ الظُّنون، وأَذْكَوْا عليه العيون،وتَربَّصُوا به ريبَ المنون. {فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ } . {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ } .

والمقصود أن هذه الهجرة النبوية شأنها شديد، وطريقها على غير المشتاق وَعِيْرٌ بعيد.

بعيدٌ على كسلانَ أو ذي مَلالةٍ وأما على المشتاقِ فهو قريب

ولَعمرُ اللهِ ما هي إلا نور يتلألأ، ولكنِ أنت ظَلامُه، وبدر أضاءَ مشارق الأرض ومغاربها، ولكن أنتَ غيْمُه وقَتَامُه، ومنهلٌ عذب صافي، ولكن أنت كَدَرُه، ومبتدأ له خَبَرَ عظيم ، ولكن ليس عندك خبره.

فحدُّ هذه الهجرة: سفر الفكر في كل مسألة من مسائل الإيمان، ونازلة من نوازل القلوب، وحادثةٍ من حوادث الأحكام، إلى معدِن الهُدى ومنبع النور المتلقى من فم الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوى **{إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى }** ، فكل مسألةٍ طلعتْ عليها شمسُ رسالتِه وإلا فاقذِفْ بها في بحار الظلمات ، وكل شاهد عدَّله هذا المزكِّي الصادق وإلا فعُدَّهُ من أهل الريب والتهمات؛ فهذا هو حدُّ هذه الهجرة.

فما للمقيمِ في مدينة طَبْعِه وعوائِده، القاطِن في دار مرباه ومولده ، القائل: إنا على طريقة آبائنا سالكون، وإنا بحبلهم مستمسكون، وإنا على آثارهم مُقتدون، وما لهذه الهجرة؟ قد ألقَى كُلَّه عليهم، واستند في معرفةِ طريق نجاتِه وفلاحِه إليهم، معتذرا بأن رأيهم له خير من رأيه لنفسه، وأن ظنونهم وآراءهم أوثقُ من ظنّه وحَدْسِه.

ولو فتَّشتَ عن مصدر هذه الكلمة لوجدتَها صادرة عن الإخلادِ إلى أرض البطالة، متولدة بين بَعْلِ الكسل وزوجتِه الملالة.

ومتى أراد العبدُ أن يَعلَمَ منزلته من هذا فلينظر في حاله، وليُطالِع قَلْبَه عند ورودِ حُكمه على خلاف هواه وغرضه،أوعلى خلاف ما قلَّد فيه أسلافه من المسائل الكبار وما دونها، {بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ } .

فسبحان الله كم من حَزازةٍ في قلوب كثير من الناس من كثير من النصوص وبوُدِّهم أن لو لم تَرِدْ؟ وكم من حَرَارة في أكبادِهم منها؟،وكم من شَجى حُلوقِهم من موردها؟

ستبدُو لهم تلك السرائر بالذي يسُوءُ ويُخْزِيْ يومَ تُبلَى السَّرائرُ

وفرقٌ بين علمِ الحُبِّ وحال الحُبِّ؛ فكثيرا ما يشتبه على العبد علم الشيء بحاله ووجوده.

وفرق بين المريض العارف بالصحة والاعتدال وهو مُثْخَنٌ بالمرض، وبين الصحيح السليم وإن لم يُحسِنْ وصفَ الصحةِ والعبارةَ عنها.

وكذلك فرق بين وصفِ الخوفِ والعلم به، وبين حالِه ووجودِه.

وقال تعالى:{النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ} .وهذا دليل على أن من لم يكن الرسول أولى به من نفسه فليس من المؤمنين، وهذه الأولوية تتضمن أمورًا:

منها: أن يكون أحبَّ إلى العبد من نفسه؛ لأن الأولوية أصلها الحب ،ويلزم من هذه الأولوية والمحبة كمالُ الانقياد والطاعة والرضى والتسليم وسائر لوازم المحبة، من الرضى بحكمه، والتسليم لأمره، وإيثاره على كل من سواه.

ومنها: أن لا يكون للعبد حُكْمٌ على نفسه أصلًا، بل الحكمُ على نفسه للرسول، يحكمُ عليها أعظمَ من حُكْمِ السيد على عبده، والوالد على ولده؛ فليس له في نفسه تصرف قط إلا ما تصرف فيه الرسول الذي هو أولى به منها.

ولا سبيلَ إلى ثبوت هذه الأولوية إلّا بعَزْلِ كل ما سواه، وتوليتِه في كل شيء، وعَرْضِ ما قاله كل أحد سواه على ما جاء به؛ فإن شهد له بالصحة قَبِلَه، وإن شهد له بالبطلان ردَّه، وإن لم تتبينْ شهادتُه له بصحةٍ ولا بطلانٍ جَعَلَه بمنزلة أحاديث أهل الكتاب، وَوَقَفَه حتى يَتَبَيَّنَ أي الأمرين أولى به؟

فمن سلكَ هذه الطريقةَ استقامَ له سَفَرُ الهجرة، واستقام له علمُه وعملُه، وأقبلتْ وجوهُ الحقِّ إليه من كلِّ جهة.

❁❁❁

قال بعض السلف: **"العادل هو الذي إذا غَضِبَ لم يُدخِلْه غضبُه في باطل، وإذا رضي لم يُخرِجْهُ رِضاه عن الحقِّ"**

۞۞۞

قال تعالى: **{وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}** ذكر سبحانه السَّببين الموجبين لكتمان الحق محذرًا منهما، متوعدًا عليهما:

أحدهما: اللَّيُّ.

والآخر: الإعراض.

فإن الحقَّ إذا ظَهرتْ حُجَّتُه، ولم يجد مَن يَرُومُ دفعَها طريقًا إلى دفعها، أعرض عنها وأمسك عن ذكرها، فكان شيطانًا أخرس، وتارةً يَلْوِيْها أو يُحرِّفها.

واللَّيُّ مثل الفَتْل، وهو التحريف. **وهو نوعان**: لَيٌّ في اللفظ، ولَيٌّ في المعنى.

فاللَّيّ في اللفظ: أن يلفظ بها على وجهٍ لا يستلزم الحقَّ؛ إما بزيادة لفظة، أو نقصانها، أو إبدالها بغيرها، أو ليًّا في كيفية أدائها، وإيهام السامع لفظًا ومراده غيره؛ كما كان اليهود يَلْوُوْنَ ألسنتَهم بالسَّلامِ على رسول الله- صلى الله عليه وسلم - فهذا أحد نوعي اللَّيّ.

والنوع الثاني منه: ليُّ المعنى، وهو تحريفه، وتأويل اللفظ على خلاف مراد المتكلم به ، وتَحْمَالُه ما لم يُرِدْه، أو يُسقط منه بعض ما أراد به، ونحو هذا من ليّ المعاني، فقال تعالى: {وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا } .

۞۞۞

فإن الحجَّةَ الواجبَ اتباعُها على الخلق كافّةً إنما هو قول المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى،وأما أقوال غيره فغايتها أن تكون سائغةَ الاتباع لا واجبةَ الاتباع ، فضلًا عن أن تُعارَضَ بها النصوصُ، وتُقَدَّمَ عليها، عياذًا بالله من الخذلان.

۞۞۞

وفي إعادة الفعل في قوله:{قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ} دونَ الاكتفاء بالفعل الأول سرٌّ لطيف وفائدةٌ جليلة.... قال: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ}؛ ففرق بين طاعته وطاعة رسوله في الفعل، ولم يُسلِّط الفعلَ الأول عليها، وقال: {وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ}، فقَرَنَ بين طاعة الرسول وطاعة أولي الأمر،وسلّط عليهما عاملًا واحدًا. وتحته سرٌّ لطيف؛ وهو دلالته على أن ما يأمر به رسوله تَجبُ طاعتُه فيه، وإن لم يكن مأمورًا به بعينه في القرآن، فتجبُ طاعةُ الرسول مفردةً ومقرونةً. فلا يَتوهّمُ مُتَوَهِّمٌ أن ما يأمر به الرسول إن لم يكن في القرآن ، وإلا فلا تجب طاعته في؛ كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم –:

"يُوشِكُ رجلٌ شَبعانُ متكئٌ على أريكتِهِ يأتيه الأمرُ من أمري؛ فيقول: بيننا وبينكم كتابُ الله، ما وجدنا فيه من شيءٍ اتبعناه، ألا وإنّي أُوتِيتُ الكتابَ ومثلَه معه" .

وأما أولو الأمر فلا تجب طاعةُ أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول، لا طاعة مفردة مستقلة؛ كما صح عن النبي - ﷺ- أنه قال: **"على المرءِ السَّمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكرِهَ ما لم يُؤْمَرْ بمعصيةِ الله، فإنْ أُمِرَ بمعصيةِ الله، فلا سمع ولا طاعةَ"** ، فتأمَّلْ كيف اقتضتْ إعادة هذا المعنى قوله تعالى: {فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ}، ولم يقل: وإلى الرسول؛ فإن الردَّ إلى القرآن ردٌّ إلى الله والرسول، والردُّ إلى السنة ردٌّ إلى الله والرسول

۞۞۞

وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، فعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء .

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية. والصحيح: أنها متناولة للصنفين جميعًا؛ فإن العلماء والأمراء هم ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، وهذان الصنفان هم الناس، وسائر النوع الإنساني تبعٌ لهم ورَعيةٌ.

۞۞۞

فمن أحال الردَّ على غيرهما فقد ضادَّ أمرَ الله، ومن دعا عند النزاع إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد دعا بدعوى الجاهلية. فلا يدخل العبد في الإيمان حتى يَرُدَّ كل ما تنازع فيه المتنازعون إلى الله ورسوله.

وقد اتفق السَّلف والخلف على أن الردَّ إلى الله هو الردُّ إلى كتابه، والردُّ إلى رسوله هو الردُّ إليه في حياته، والردُّ إلى سنَّته بعد وفاته.

۞۞۞

ومن تدبَّر العالَمَ والشُّرور الواقعة فيه علم أن كل شَرٍّ في العالم فسببه مخالفة الرسول والخروج عن طاعته، وكل خير في العالم فإنما هو بسبب طاعة الرسول.

وهذا كما أنه معلوم في الشُّرور العامّة والمصائب الواقعة في الأرض؛ فكذلك هو في الشَّر والألم والغَمِّ الذي يُصِيبُ العبدَ في نفسه، فإنما هو بسبب مخالفة الرسول، وإلَّا فطاعتُه هي الحصن الذي من دخله فهومن الآمنين، والكهف الذي من لجأ إليه فهو من الناجين.

وهذا برهان قاطعٌ على أنه لا نجاةَ للعبد ولا سعادةَ إلا باجتهاده في معرفة ما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - علمًا، والقيام به عملًا.

وكمالُ هذه السعادة بأمرين آخرين:

أحدهما: دعوةُ الخَلْق إليه.

والثاني: صبره وجهادُه على تلك الدَّعوة.

فانحصر الكمال الإنسانيُّ في هذه المراتب الأربعة:

أحداها: العلم بما جاء به الرسول.

الثانية: العمل به.

الثالثة: بَثُّه في الناس، ودعوتهم إليه.

الرابعة: صبره وجهاده في أدائه وتنفيذه.

ومن تطلَّعتْ هِمَّتُه إلى معرفة ما كان عليه الصحابة وأراد اتباعَهم؛ فهذه طريقتهم حقًا.

فإن شِئتَ وَصْلَ القومِ فاسلُكْ طريقَهم ... وقد وَضَحَتْ للسالكينَ عِيانَا

وقال تعالى لرسوله – ﷺ"-: {قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ }

فأيُّ ضلالٍ أعظمُ من ضلالِ مَن يزعم أن الهداية لا تحصل بالوحي، ثم يحيل فيها على عقلِ فلان ورأيِ فَلْتَان ؟ وقولِ زيدٍ وعمرو؟ فلقد عظُمتْ نعمةُ الله على عبدٍ عافاه من هذه البلية العظمى والمصيبة الكبرى، والحمد لله رب العالمين.

۞۞۞

قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ } ، فلما كفروا وصَدُّوا عِبادَه عن سبيله عذَّبهم عذابين: عذابًا بكفرهم، وعذابًا بِصدِّهم عن سبيله.

وحيث يذكر الكفر المجرد لا يعدّد العذاب؛ كقوله:{وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ }

۞۞۞

قال تعالى:{وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ } ؛ فينقطع يوم القيامة كل سببٍ ووُصْلَةٍ ووسيلة ومودَّة وموالاة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وبين ربه، وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله.

إذا تَقَطَّعَ حَبْلُ الوَصْلِ بينَهُمُ ... فللمحبينَ حَبْلٌ غيرُ مُنقطعِ

وإن تَصَدَّعَ شَمْلُ الوَصْلِ بينَهُمُ ... فللمحبينَ شَمْلٌ غير مُنْصَدِعِ

فالغيث سببُ حياة الأبدان، والعلم سبب حياة القلوب.

وقد ذكر النبي - ﷺ"- أقسام الخلائق بالنسبة إلى دعوته وما بعثه اللهُ به من الهدى في قوله - ﷺ"-: "**مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم: كمثلِ غيثٍ أصابَ أرضًا؛ فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلَتِ الماءَ؛ فأنبتتِ الكَلأَ والعُشْبَ الكثير، وكانَ منها أَجادِبُ أَمسكَتِ الماءَ؛ فسَقَى الناسُ وزَرَعُوا، وأصابَ طائفة أخرى إنما هي قِيْعَانٌ لا تُمسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلأً، فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله،ونَفَعَه ما بعثني الله به، ومَثَلُ من لم يَرْفَعْ بذلك رأسًا، ولم يَقبلْ هُدى الله الذي أُرسِلْتُ به**"

فالأول:عالِمٌ مُعَلِّمٌ، داعٍ إلى الله على بصيرة، فهذا من ورثة الرُّسُل.

والثاني: حافظٌ مُؤَدٍّ لما سَمِعَه، فهذا يَحْمِلُ إلى غيره ما يَتَّجِرُ به المحمولُ إليه ويستثمر.

والثالث :لا هذا ولا هذا، فهو الذي لم يقبل هُدى الله، ولا رَفَعَ به رأسًا.

فاستوعب هذا الحديثُ أقسامَ الخَلْقِ في الدعوة النبوية ومنازلهم، منها قسمان سعيدان، وقسمٌ شقي .

۞۞۞

والمقصود بهذا أن من أعظم التعاون على البرِّ والتّقوى التعاون على سفر الهجرة إلى الله ورسوله ، باليد واللسان والقلب، مساعدةً، ونصيحةً ، وتعليمًا، وإرشادًا، ومودةً.

ومن كان هكذا مع عباد الله كان الله بكل خير إليه أسرع، وأقبلَ اللهُ إليه بقلوب عباده، وفتحَ على قلبه أبوابَ العلم، ويسَّره لليسرى. ومن كان بالضد فبالضدِّ، {وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ }

۞۞۞

فإن قلت: فقد أشرت إلى سفرٍ عظيم وأمر جسيمٍ، **فما زادُ هذا السَّفرِ وما طريقُه وما مَركبُه؟**

قلت: **زَادُه العلمُ الموروث عن خاتم الأنبياء** - "ﷺ"-، ولا زاد له سواه؛ فمن لم يحصل هذا الزاد فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخالفين. فرفقاء التخلُّف البطَّالون أكثر من أن يُحصَوا، فله أسوةٌ بهم، ولن ينفعه هذا التأسي يوم الحسرة شيئًا كما قال تعالى: {وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ }

. فإن مصائب الدنيا إذا عمّت صارت مَسْلاةً، وتأسَّى بعضُ المصَابِين ببعض؛ كما قالت الخنساء :

فلولا كثرةُ الباكينَ حولي على إخوانِهم لقَتَلْتُ نَفسي
وما يَبكُون مثلَ أخي ولكن أُسَلِّي النَّفسَ عنهم بالتأسِّي

فهذا الروح الحاصل من التأسي معدومٌ بين المشتركين في العذاب يومَ القيامة.

وأما طريقُه: فهو بذل الجهد، واستفراغ الوسع، فلن يُنَالَ بالمنَى، ولا يُدْرَك بالهُوَيْنا ، وإنما كما قيل:

فَخُضْ غَمَراتِ الموتِ وَاسْمُ إلى العُلَا لكي تُدرِكَ العِزَّ الرفيعَ الدعائمِ
فلا خيرَ في نفسٍ تَخافُ من الرَّدَى ولا هِمَّةٍ تَصْبُو إلى لَومِ لائمِ

ولا سبيلَ إلى ركوب هذا الظهر إلا بأمرين:

أحدهما: أن لا يَصْبُو في الحق إلى لَومةِ لائم؛ فإن اللوم يُدرِكُ الفارسَ؛ فيَصْرَعُه عن فرسِه، ويَجعلُه طَرِيْحًا في الأرض.

والثاني: أن تَـهُونَ عليه نفسُه في الله؛ فيقدم حينئذٍ ولا يخاف الأهوال، فمتى خافتِ النَّفسُ تأخرتْ وأحجمتْ، وأخلدتْ إلى الأرض.

ولا يَتِمُّ له هذان الأمران إلا بالصبر؛ فمن صبر قليلًا صارت تلك الأهوال ريحًا رَخَاءً في حقه تَحمِلُه بنفسها إلى مطلوبه، فبينما هو يخاف منها، إذْ صارتْ أعظمَ أعوانِه وخَدَمِه، وهذا أمر لا يعرفه إلا من دخل فيه.

وأما مَركَبُه: فصِدْقُ اللَّجأ إلى الله، والانقطاع إليه بكلِّيته، وتحقيق الافتقار إليه من كل وجه، والضراعة إليه، وصدق التوكل عليه، والاستعانة به، والانطراح بين يديه كالإناءِ المثْلُوم المكسور الفارغ الذي لا شيءَ فيه، يتطلعُ إلى قَيِّمِه ووَلِيِّه أن يَجْبُره، ويَلُمَّ شَعَثَه، ويُمِدَّه من فضلِه ويستره، فهذا الذي يُرجَى له أن يتولى الله هدايتَه، وأن يَكشِفَ له ما خفي على غيره من طريق هذه الهجرة، ومنازلها.

❁❁❁

ورأس مال الأمر وعموده في ذلك إنما هو: دوامُ التفكر وتدبر آيات القرآن ، بحيث يستولي على الفكر، ويَشْغَلَ القلبَ، فإذا صارتْ معاني القرآنِ مكانَ الخواطرِ من قلبه وهي الغالبةُ عليه، بحيث يَصير إليها مَفْزَعُه ومَلْجَؤُه، تَمَكَّنَ حينئذٍ الإيمانُ من قلبه ، وجلس على كرسيه، وصار له التصرفُ، وصار هو الآمر

المطاع أمره؛ فحينئذٍ يستقيم له سَيْرُه، ويتضح له الطريق، وتراه ساكنًا وهو يُبارِي الريحَ: {وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ}

فإن قلت: إنك قد أشرتَ إلى مقام عظيم **فافتَحْ لي بابَه، واكشفْ لي حِجابَه، وكيف تَدَبُّرُ القرآن وتفهُّمُه والإشرافُ على عجائبِه وكنوزِه؟ وهذه تفاسير الأئمة بأيدينا، فهل في البَيْنِ غيرُ ما ذكروه؟**

قلت: سأضرب لك أمثالًا تحتذي عليها، وتجعلها إمامًا لك في هذا المقصد[٢].

قال الله تعالى: **{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ } إلى قوله: {الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ }** .

فعهدي بك إذا قرأت هذه الآيات ، وتطلَّعتَ إلى معناها وتدبرتَها؛ فإنما تطلع منها على أن الملائكة أتوا إبراهيم في صورة أضيافٍ يأكلون، وبَشَّروه بغلام عليم، وأن امرأته عَجِبتْ من ذلك؛ فأخبرتها الملائكة أن الله قال ذلك، ولم يجاوز تدبرك غير ذلك.

[٢] وقد نقلت كلام الإمام ابن القيم كاملاً لنفاسته، فقد أبدع في تفسير هذه الآية –رحمه الله–

فاسمع الآن بعضَ ما في هذه الآيات من الأسرار .

وكم قد تضمنتْ من أنواع الثناء على إبراهيم؟

وكيف جمعتْ آدابَ الضيافة وحقوقَها؟

وكيف يُراعَى الضيفُ ؟

وما تضمنتْ من الرد على أهل الباطل من الفلاسفة والمعطلة.

وكيف تضمنتْ عَلَمًا عظيمًا من أعلام النبوة ؟

وكيف تضمنتْ جميعَ صفاتِ الكمال، التي مَرَدُّها إلى العلم والحكمة؟

وكيف أشارتْ إلى دليل إمكان المعاد بألطف إشارة وأوضحها، ثم أفصحتْ بوقوعه؟

وكيف تضمنت الإخبارَ عن عدل الرب وانتقامه من الأمم المكذِّبة؟

وتضمنتْ ذكرَ الإسلامِ والإيمانِ والفرقَ بينهما.

وتضمنتْ بقاء آيات الرب الدالة على توحيدِه، وصِدْقِ رسله، وعلى اليوم الآخر.

وتضمنتْ أنه لا ينتفع بهذا كله إلا من في قلبه خوفٌ من عذاب الآخرة، وهم المؤمنون بها، وأما من لا يخاف الآخرة ولا يؤمن بها، فلا ينتفع بتلك الآيات.

فاسمع الآن بعض تفاصيل هذه الجملة:

فتتحَ الله سبحانَه القصةَ بصيغة موضوعة للاستفهام، وليس المراد به حقيقته من الاستفهام.ولهذا قال بعض الناس : إن "هل" في مثل هذا الموضع بمعنى "قد" التي تقتضي التحقيق.

ولكن في ورود الكلام في مثل هذا الاستفهام سر لطيف، ومعنى بديع، فإن المتكلم إذا أراد أن يخبر مخاطبَه بأمر عجيب ينبغي الاعتناءُ به، وإحضارُ الذهن له، صَدَّرَ له الكلامَ بأداةٍ تُنَبِّهُ سمعَه وذهنَه للخبر، فتارةً يُصدِّره بـ"ألا"، وتارةً يُصدِّره بـ"هل"، فيقولُ: هل علمتَ ما كان من كيتَ وكيتَ؟ إما مُذكّرًا به، وإما واعظًا له مخوِّفًا ، وإما منبِّهًا على عظمةِ ما يُخْبَرَ به، وإما مقرِّرًا له.

فقوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى }، و{هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ} ،و{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ } ،و{هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ } متضمن لتعظيم هذه القصص، والتنبيه على تدبرها، ومعرفة ما تضمنته.

وفيه أمر آخر، وهو التنبيهُ على أن إتيان هذا إليك عَلَمٌ من أعلام النُّبوة؛ فإنه من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا أم لم يأتك إلا مِنْ قِبَلِنَا؟

فانظر ظهور هذا الكلام بصيغة الاستفهام، وتأمل عِظَمَ موقعه في جميع موارده يشهد أنه من الفصاحة في ذروتها العليا.

وقوله: {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ} متضمن لثنائه على خليله إبراهيم؛ فإن في {المكرمين} قولين :

أحدهما: إكرام إبراهيم لهم؛ ففيه مدحٌ له بإكرام الضيف.

والثاني: أنهم مكرمون عند الله؛ كقوله: {بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ} ، وهو متضمن أيضًا لتعظيم خليله ومدحه؛ إذ جعل ملائكته المكرمين أضيافًا له.

فعلى كلا التقديرين فيه مدح لإبراهيم.

وقوله تعالى: {فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ} متضمن لمدحٍ آخر لإبراهيم حيث ردَّ عليهم أحسنَ مما حَيَّوه به؛ فإن تحيتهم باسم منصوبٍ متضمن لجملةٍ فعليَّةٍ، تقديره: سلَّمنا عليك سلامًا، وتحيةُ إبراهيم لهم باسمٍ مرفوعٍ متضمن لجملةٍ اسميَّةٍ، تقديره: سلامٌ ثابتٌ أو دائم أو مستقرٌّ عليكم. ولا ريبَ أن الجملة الاسمية تقتضي

الثبوت واللزوم، والفعلية تقتضي التجدد والحدوث؛ فكانت تحية إبراهيم أكملَ وأحسنَ .

ثم قال: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، وفي هذا من حُسْنِ مخاطبة الضيف والتذمُّم منه وجهان من المدح:

أحدهما: أنه حذف المبتدأ، والتقدير أنتم منكرون، فتذمَّم منهم، ولم يُواجهْهم بهذا الخطاب لما فيه من بعض الاستيحاش، بل قال: {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ }، ولا ريب أن حذف المبتدأ في هذا من محاسن الخطاب ، وكان النبي - صلى الله عليه وسلم - لا يُواجِهُ أحدًا بما يكرهُه، بل يقول: "ما بالُ أقوامٍ يقولون كذا، ويفعلون كذا" .

والثاني: قوله {قَوْمٌ مُنْكَرُونَ}؛ فحذف فاعل الإنكار، وهو الذي كان أنكرهم؛ كما قال تعالى في موضع آخر: {نَكِرَهُمْ} ، ولا ريب أن قوله: {مُنْكَرُونَ } ألطفُ من أن يقول: أنكرتُكم.

وقوله: {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ }
متضمنٌ وجوهًا من المدح، وآداب الضيافة، وإكرام الضيف:

منها: قوله {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ} ، والروغانُ: الذهاب في سرعة واختفاءٍ، وهو يتضمن المبادرة إلى إكرام الضيف، والاختفاءُ ترك تخجيله وألا يُعرِّضَه للحياء، وهذا

بخلاف من يتثاقل، يَتبارَدُ على ضيفِه، ثم يبرز بمرأًى منه، ويَحُلُّ صُرَّةَ النفقة، ويَزِنُ ما يأخذ، ويتناول الإناء بمرأى منه، ونحو ذلك مما يتضمن تخجيل الضيف وحياءه، فلفظةُ "راغ" تنفي هذين الأمرين.

وفي قوله: {إِلَى أَهْلِهِ} مدحٌ آخر، لما فيه من الإشعار بأن كرامة الضيف مُعَدَّةٌ حاصلةٌ عند أهله، وأنه لا يحتاج أن يَستقرِضَ من جيرانه، ولا يذهب إلى غير أهله، إذْ نُزُلُ الضيفِ حاصل عندهم.

وقوله: {فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ } يتضمن ثلاثة أنواع من المدح:

أحدها: خدمة ضيفه بنفسه، فإنه لم يرسل به، وإنما جاء به بنفسه .

الثاني: أنه جاءهم بحيوان تام لم يأتهم ببعضه؛ ليتخيّروا من أطايب لحمه ما شاءوا.

الثالث: أنه سمين ليس بمهزولٍ، وهذا من نفائس الأموال، ولدُ البقرة السمين، فإنهم يُعْجَبون به، فمن كرمه هان عليه ذَبْحُه وإحضارهُ.

وقوله: {إليهم} متضمنٌ لمدحٍ وأدبٍ آخر، وهو إحضار الطعام إلى بين أيدي الضيف، بخلاف من يُهيِّئُ الطعامَ في موضع، ثم يُقيم ضيفَه؛ فيُورِدُه عليه.

وقوله: {قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ } فيه مدحٌ وأدب آخر ؛ فإنه عرض عليهم الأكل بقوله: {أَلَا تَأْكُلُونَ }، وهذه صيغة عرضٍ مؤذنة بالتلطف، بخلاف من يقول: ضعوا أيديكم في الطعام، كلوا، تقدموا، ونحو ذلك.

وقوله: {فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً}؛ لأنه لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون منهم شر؛ فإن الضيف إذا أكل من طعام ربِّ المنزل اطمأنَّ إليه وأنس به، فلما علموا منه ذلك {قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ }، وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عَجبَتْ من ذلك، وقالت: عجوزٌ عقيمٌ لا يُولَد لمثلي، فأنى لي بالولد؟ وأما إسماعيل فإنه من سُرِّيته هاجرَ، وكان بكْرَه وأولَ ولدِه، وقد بين سبحانه في سورة هود في قوله تعالى: {فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } في هذه القصةِ نفسِها.

وقوله: {فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا}؛ فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها؛ إذ بادرتْ إلى النُّدبةِ وصَكِّ الوجهِ عند هذا الإخبار.

وقوله: {وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ } فيه حسن أدب المرأة عند خطاب الرجال، واقتصارها من الكلام على ما يتأدى به الحاجة، فإنها حذفت المبتدأ، فلم تقل: أنا عجوز عقيم، واقتصرت على ذكر السبب الدال على عدم الولادة، لم تذكر غيره، وأما في سورة هود فذكرتِ السببَ المانعَ منها ومن إبراهيم، وصرَّحتْ بالتعجب .

وقوله: {قَالُوا كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ} متضمن لإثبات صفة القول له .

وقوله: {إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ } متضمنٌ لإثبات صفة الحكمة والعلم اللذين هما مصدرُ الخلق والأمر، فجميعُ ما خلقه سبحانه صادرٌ عن علمه وحكمته، وكذلك أمرُه وشرعُه مصدرُه عن علمه وحكمته.

والعلم والحكمة متضمنان لجميع الكمال، فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القومية،والقدرة ، والبقاء، والسمع، والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التَّام.

والحكمة تتضمنُ كمالَ الإرادة، من العدل، والرحمة، والإحسان، والجود، والبر، ووَضْع الأشياء مواضعَها على أحسن وجوهها، ويتضمن إرسال الرسل، وإثبات الثواب والعقاب.

كلُّ هذا يُعلَم من اسمه "الحكيم"، كما هي طريقة القرآن في الاستدلال على هذه المطالب العظيمة بصفة الحكمة، والإنكار على من يزعم أنه خلق الخلقَ عبثًا أو سُدىً أو باطلًا. فنفسُ حكمته تتضمن الشرعِ والقَدَر، والثواب والعقاب، ولهذا كان أصح القولين أن المعاد يُعلم بالعقل، وأن السمع ورد بتفصيل ما يدل العقل على إثباته.

ومن تأمل طريقة القرآن وجدها على ذلك، وأنَّ الله سبحانه يَضْرِب لهم الأمثال المعقولة التي تَدلُّ على إمكان المعاد تارةً ووقوعه أخرى، فيذكر أدلة القدرة الدالة على إمكان المقدور ، وأدلة الحكمة المستلزمة لوقوعه.

ومن تأمل أدلّة المعاد في القرآن وجدها كذلك مُغنِيةً –بحمد الله ومِنَّتِه على عبادِه– عن غيرها، كافية شافية مُوصِلةً إلى المطلوب بسرعة، متضمّنة للجواب عن الشُّبَه العارضة لكثير من الناس.

وإن ساعدَ التوفيقُ من الله كتبتُ في ذلك سفرًا كبيرًا، لما رأيتُ في الأدلة التي أرشد إليها القرآن من الشفاء، والهدى، وسرعة الإيصال ، وحسن البيان، والتنبيه على مواضع الشبه والجواب عنها بما ينثلجُ له الصدرُ؛ ويُشْرِقُ معه اليقينُ، بخلاف غيره من الأدلة، فإنها على العكس من ذلك، وليس هذا موضع التفصيل .

والمقصود أن مصدر الأشياء خلقًا وأمرًا على علم الرب وحكمته.

واختصت هذه القصة بذكر هذين الاسمين لاقتضائها لهما؛ لتعجُّبِ النفوس من تولد مولودٍ بين أبوين لا يُولَد لمثلهما عادة، وخفاء العلم بسبب هذا الإيلاد، وكون الحكمة اقتضت جريانَ هذه الولادة على غير العادة المعروفة؛ فذكر في الآية اسم العلم والحكمة المتضمن لعلمه سبحانه بسبب هذا الخلق وغايته، وحكمته في وضعه موضعه من غير إخلالٍ بموجب الحكمة.

ثمَّ ذكر سبحانه قصةَ الملائكة في إرسالهم لإهلاك قوم لوط، وإرسال الحجارة المسَوَّمَة عليهم، وفي هذا ما يتضمن تصديقَ رسله وإهلاكَ المكذِّبين لهم، والدلالة على المعاد والثواب والعقاب؛ لوقوعه عيانًا في هذا العالم، وهذا من أعظم الأدلة الدالة على صدق رسله وصحةِ ما أخبروا به عن ربهم.

ثمَّ قال: {فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} ، ففرَّقَ بين الإسلام والإيمان هنا لسرٍّ اقتضاه الكلام؛ فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاةٍ من العذاب، ولا ريب أن هذا مختصٌّ بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ } لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأنَّ امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمةٌ في الظاهر، فكانت في البيت الموجودين لا في القوم الناجين. وقد أخبر الله سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتُها أنَّها كانت تدلُّ قومَها على أضيافِه وقَلْبُها معهم، وليست خيانةَ فاحشةٍ، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا، وليست من المؤمنين الناجين.

ومن وَضَع دلالاتِ القرآن وألفاظه مواضعها، تبينَ له من أسرارِه وحِكَمِه ما يَهُزّ العقول، ويعلم معه تنزُّلَه من حكيم حميد.

وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور، وهو أن الإِسلام أعمُّ من الإيمان، فكيف استثنَى الأعمَّ من الأخصِّ، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟

وتبينَ أن المسلمين مُستثنَيْن مما وقع عليه فعل الوجود، والمؤمنين غير مستثنين منهم ، بل هم المخرَجون الناجون .

وقوله تعالى: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ } فيه دليل على أن آيات الله سبحانه وعجائبه التي فَعَلَها في هذا العالم وأبقى آثارَها دالَّةً عليه وعلى صدقِ رسله، إنما ينتفع بها من يؤمن بالمعاد، ويخشى عذاب الله؛ كما قال تعالى في موضع آخر: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ} ، وقال تعالى: {سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى } .

فإن من لا يؤمن بالآخرة غايتُه أن يقول: هؤلاء قومٌ أصابَهم الدهرُ كما أصابَ غيرَهم، ولا زال الدهرُ فيه الشقاءُ والسعادة، وأما من آمن بالآخرة وأشفقَ منها، فهو الذي ينتفع بالآيات والمواعظ.

والمقصود بهذا إنما هو التمثيل والتنبيه على تفاوتِ الأفهام في معرفة القرآن، واستنباطِ أسراره، وإثارةِ كنوزه، واعتبِرْ بهذا غيرَه، والفضلُ بيد الله يؤتيه من يشاء.

والمقصود أن القلب لما تحوَّل لهذا السفر طلبَ رفيقًا يَأْنَسُ به في السفر، فلم يجد إلا معارضًا مناقضًا، أو لائمًا بالتأنيب مُصرِّحًا ومعرِّضًا ، أو فارغًا عن هذه الحركة مُعرِضًا، وليتَ الكلَّ كانوا هكذا، فلقد أحسنَ إليك من خَلَّاكَ وطريقَكَ ولم يَطْرَحْ شَرَّهُ عليك؛ كما قال القائل:

إنَّا لفي زَمَنٍ تَرْكُ القبيحِ به من أكثر الناسِ إحسانٌ وإجمالُ

فانفرادُ العبدِ في طريق طلبِه دليلٌ على صدقِ المحبة.

ومن نظرَ في هذه الكلماتِ التي تضمنتْها هذه الوُرَيْقةُ ، عَلِمَ أنها من أهمِّ ما يحصلُ به التعاونُ على البرِّ والتقوى، وسفر الهجرة إلى الله ورسوله، وهذا الذي قصدَ مُسَطِّرُها بكتابتها، وجَعَلَها هديتَه المعجَّلَة السابقةَ إلى أصحابِه ورفقائِه في طلب العلم. وأُشهِدُ الله -وكفى بالله شهيدًا- لو تُوافِيه من أحدٍ منهم لقَابلَها بالقبول، ولَبادَرَ إلى تفهُّمِها وتدبُّرِها ، وعَدَّها من أفضل ما أهدى صاحبٌ إلى صاحبِه،.....**وإنما الهديةُ النافعةُ كلمةٌ من الحكمة يُهدِيها الرجلُ إلى أخيه المسلم.**

ومن أراد هذا السفرَ فعليه بمرافقة الأموات الذين هم في العالم أحياء، فإنَّه يَبلُغ بمرافقتِهم إلى مقصدِه، وليحذرْ من مرافقة الأحياء الذين في الناس أموات، فإنهم يَقطَعون عليه طريقَه، فليس لهذا السالكِ أنفعُ من تلك المرافقة، وأوفقُ له من هذه المفارقة، فقد قال بعضُ مَن سَلَفَ : **"شتَّانَ بين أقوامٍ موتى تَحْيا القلوبُ بذكرِهم، وبين أقوامٍ أحياءٍ تموتُ القلوب بمخالطتِهم".**

فمتى تَرقَّتِ هِمَّتُه من صحبتهم إلى صُحْبةِ مَن أشباحُهم مفقودةٌ، ومحاسنُهم وآثارُهم الجميلةُ في العالم مشهودةٌ ، استحدثَ بذلك همةً أخرى وعملًا آخر، وصارَ بين الناس غريبًا، وإن كان فيهم مشهورًا ونسيبًا، ولكنه غريب محبوبٌ يَرَى ما الناسُ فيه، وهم لا يرون ما هو فيه، يُقِيْمُ لهم المعاذيرَ ما استطاعَ، وينصحُهم بجهده وطاقته، سائرًا فيهم بعينين:

عين ناظرة إلى الأمر والنهي؛ بها يأمرهم وينهاهم، ويواليهم ويعاديهم، ويؤدي إليهم الحقوق، ويستوفيها عليهم.

وعين ناظرة إلى القضاء والقدر، بها يَرْحَمُهم ويدعو لهم ويستغفر لهم، ويلتمسُ لهم وجوهَ المعاذيرِ فيما لا يُخِلُّ بأمرٍ ولا يعود بنقضِ شرعٍ، قد وَسِعَتْهم بَسطتُه ورحمته ولينُه ومعذرتُه، واقفًا عند قوله تعالى: { خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ

وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ } ، متدبرًا لما تضمنتْه هذه الآية من حسن المعاشرة مع الخلق، وأداء حقِّ اللهِ فيهمِ، والسلامة من شرهم. فلو أخذ الناسُ كلُّهم بهذه الآية لكفَتْهم وشَفَتْهم؛ فإن العفو ما عَفَا من أخلاقهم، وسَمَحَتْ به طبائعهم، ووَسِعَهم بذلُه من أموالهم وأخلاقهم؛ فهذا ما منهم إليه.

وأما ما يكون منه إليهم؛ فأمرهم بالمعروف، وهو ما تَشهدُ به العقولُ وتَعرِفُ حُسْنَه، وهو ما أمر الله به.

وأما ما يَتَّقِيْ به أَذَى جاهِلهم؛ فالإعراضُ عنهم ، وتركُ الانتقامِ لنفسه والانتصارِ لها.

فأيُّ كمالٍ للعبدِ وراءَ هذا؟

وأي معاشرة وسياسة للعالَمِ أحسنُ من هذه المعاشرة والسياسة؟

وقال تعالى لنبيه: **{فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ}** .

وقد تضمنتْ هذه الكلماتُ مراعاةَ حقِّ اللهِ وحقِّ الخَلْقِ؛ فإنهم إمّا أنْ يُسِيْئُوا في حقِّ اللهِ أو في حقِّ رسولِه؛ فإن أساءوا في حقِّك فقابِلْ ذلك بعَفْوِكَ

عنهم، وإن أساءوا في حقِّي فاسألني أغفِرْ لهم وأَسْتَجْلِبْ قلوبَهم، وأَسْتَخْرِجْ ما عندَهم من الرأي بمشاورتهم، فإن ذلك أحرى في استجلاب طاعتِهم وبِذْلِهم النصيحةَ، فإذا عَزَمْتَ على أمر فلا استشارةَ بعد ذلك، بل توكَّلْ على اللهِ ، وامْضِ لما عَزَمْتَ عليه من أمرِك ؛ فإن الله يُحِبُّ المتوكلين.

فهذا وأمثاله من الأخلاق التي أَدَّبَ اللهُ بها رسولَه، وقال فيه: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} . قالت عائشة –رضي الله عنها–: **"كانَ خُلُقُه القرآنَ"** .

وهذه لا تَتِمُّ إلا بثلاثةِ أشياءَ:

أحدها: أن يكون العُودُ طيبًا، فأما إذا كانت الطبيعةُ جافيةً غليظةً يابسةً عَسُرَ عليها مزاولةُ ذلك علمًا وإرادةً وعملًا، بخلاف الطبيعة المنقادةِ اللَّينةِ السَّلِسَةِ القِيَادِ، فإنها مستعدَّةٌ إنما تُرِيدُ الحرثَ والبذرَ.

الثاني: أن تكون النفس قويةً غالبةً قاهرةً لِدَوَاعِي البطالةِ والغَيِّ والهوى، فإن هذه أعداءُ الكمالِ، فإن لم تَقْوَ النفسُ على قَهْرِها وإلا لم تَزَلْ مغلوبةً مقهورةً.

الثالث: علمٌ شافٍ بحقائق الأشياء، وتنزيلُها منازِلَها، يميزُ به بين الشَّحْمِ والوَرَمِ، والزجاجة والجوهرة.

فإذا اجتمعتْ فيه هذه الخصالُ الثلاثة ، وسَاعَدَهُ التوفيقُ فهو من القسم الذين سَبقَتْ لهم من ربهم الحُسْنَى، وتَمَّتْ لهم العناية.

وهؤلاء هم القسم الأوّل المذكورون في قول النبي - ﷺ-: "مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم" الحديث، وقد تقدم.

۞۞۞

وأول الأمر وآخره: إنما هو معاملةُ الله وحده، والانقطاعُ إليه بكُلِّيَّةِ القلب، ودوامُ الافتقارِ إليه، فلو وَفَّى العبدُ هذا المقامَ حقَّه لرأى العجبَ العجيبَ من فضلِ ربّه وبرّه ولطفه ودفاعه عنه، والإقبالِ بقلوب عبادِه إليه، وإسكانِ الرّحمة والمحبةِ له في قلوبهم، ولكن نقول: رَبَّنا غَلَبَ علينا لُؤْمُنا، وجهلُنا وظلمُنا وإساءتُنا من أدلِّ شيءٍ منه، فها نحن مُقِرُّون بالتفريط والتقصير، ومَن ادّعى منّا عندك وَجاهةً فليس إلَّا ذليلٌ حقيرٌ، فإن تَكِلْنا إلى أنفسِنا تَكِلْنا إلى ضَيْعَةٍ وعجز وذنب وخطيئة؛ فوا حسرتاه ووا أسفاه على رضاك! ولو غضب كل أحدٍ سواك، وعلى إيثار طاعتِك ومحبتِك على ما سواهما، وعلى صدق المعاملة معك.

فليتَكَ تَحْلُو والحياةُ مَرِيرةٌ ... وليتَكَ تَرضَى والأَنامُ غِضَابُ
وليتَ الذي بيني وبينَك عامر ... وبيني وبين العالمين خَرابُ

إذا صَحَّ منكَ الوُدُّ فالكلُّ هَيِّنٌ ... وكلُّ الذي فوقَ الترابِ ترابُ

۞۞۞

وقد كان يُغنِيْ من كثير من هذا التطويل ثلاثُ كلماتٍ كان يكتب بها بعضُ السلف إلى بعض، فلو نَقَشَها العبدُ في لوحِ قلبه يقرؤها على عدد الأنفاس لكان ذلك بعض ما يستحقه، وهي: "مَن أصلحَ سَرِيرتَه أصلحَ اللّٰهُ علانيتَه، ومَن أصلح ما بينه وبين الله أصلحَ اللّٰهُ ما بينَه وبينَ الناس، ومَن عَمِلَ لآخرتِه كفاه الله مَؤُوْنةَ دنياه".

۞۞۞

وليعذُرِ الأصحابُ في هذه الكلمات؛ فإنها والله نَفْثَةُ مصدورٍ، وتنفُّسُ مَحْرورٍ.

أُقلِّبُ طَرْفِيْ لا أرى مَنْ أُحِبُّه ... وفي الحَيِّ ممن لا أُحِبُّ كثيرُ

فهو نفسُ مَن قد أكلَ بعضُه بعضًا، فهو المبتدأ والخبر، ومنه الغناء ومنه الطرب.

مَا في الخِيامِ أخو وَجْدٍ يُطارحه حديثَ ليلَى ولا صَبٌّ يُجارِيْه

فأَحَبَّ مُحِبُّكم مطارحةَ من بَعُدَتْ عنده ديارُه، وشَطَّ عنه مَزارُه؛ فهو كما قيل:

يا ثاويًا بين الجَوانحِ والحَشَا مِنّي وإنْ بَعُدَتْ عَلَيَّ دِيَارُه
عطْفًا على قلبٍ يُحِبُّكَ هَائمٍ إن لم تَصِلْه تَقَطَّعَتْ أَعْشَارُه
وارْحَمْ كَئيبًا فيكَ يَقْضِي نَحْبَهُ أَسَفًا عليك ومَا انْقَضَتْ أَوْطَارُه
لا يَستفِيْقُ من الغَرامِ وكلَّما نَحَّوْكَ عنهُ تهتَّكَتْ أَسْتَارُه

وكلُّ ذي شَجْوٍ يَصرِفُ هذا وأمثالَه إلى شَجْوِه، وهذا مما يَسترْوِحُ إليه المكروبُ بعضَ الاسترواح، وهيهات هيهات إن القلب لن يَقَرَّ له قرارٌ حتى يُوضَعَ في موضعِه، ويَستقرَّ في مُستقرِّه الذي لا مَقَرَّ له سِواه، كما قيل:

إذا ما وَضَعْتَ القلبَ في غيرِ موضعٍ بغير إناءٍ فهو قَلْبٌ مُضَيَّعُ

وتحت هذا البيتِ معنًى شريفٌ جدًّا؛ قد شرحتُه في كراسةٍ مفردةٍ ، والله أعلم. والحمد لله وحده

وصلَّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين